مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(عبرانيين ٤: ١٤-١٦؛ ٥: ١-٦)

يا إخوةُ، اذ لنا رئيسُ كهنةٍ عظيمٌ قدِ اجتازَ السمواتِ، يسوعُ ابنُ اللهِ، فَلْنَتَمَسَّكْ بالإعتراف* لأن ليسَ لنا رئيسُ كهنةٍ غيرَ قادرٍ ان يرثيَ لأَوهانِنا بل مُجرَّبٌ في كلّ شيءٍ مثلَنا ما خلا الخطيئَة* فلنُقبِلْ اذًا بثقةٍ إلى عرشِ النعمةِ لننالَ رحمةً ونَجِدَ ثقةً للإغاثةِ في أَوانها* فإنَّ كُلَّ رئيسِ كهنةٍ مُتَّخَذٍ منَ الناسِ يُقامُ لأجلِ الناسِ فيما هو للّهِ ليُقرِّبَ تقادِمَ وذبائحَ عن الخطايا في إمكانه ان يُشفِقَ على الذين يجهلونَ ويَضِلُّون لكونهِ هو أيضًا متلبِّسًا بالضُّعف* ولهذا يجبُ عليه أن يقرِّبَ عن الخطايا لأجلِ نفسِه كما يقرِّبُ لأجلِ الشعب* وليسَ أحدٌ يأخُذُ لنفسِهِ الكرامةَ بل مَن دعاهُ اللّهُ

أحد الصليب

في هذا الأحد الثالث من الصوم الأربعيني المقدس نصل إلى منتصف رحلتنا الروحية التي تقودنا إلى الفصح المقدَّس، إلى الصليب والقيامة. ولأنه قد يتسلّل الوهن والضعف إلى نفوس المؤمنين وأجسادهم رتب آباء الكنيسة القديسون أن نسجد في هذا الأحد للصليب الكريم المعطي الحياة. تضع الكنيسة الصليب نصب أعيننا مشدِّدة إيماننا لمتابعة جهادنا دون يأس، ومذكرة إيانا بالفرح الذي لا بدّ واصلون إليه، وهو الفرح الآتي بآلام ربنا يسوع المسيح التي نلنا بواسطتها الخلاص.

يوم الفصح نرتل «المسيح قام من بين الأموات ووطئ الموت بالموت». بموته على الصليب انتصر الرب يسوع على الموت وحررّنا من سلطان العدو الشرير. كيف حصل ذلك؟ نذكر جيداً ان الله أوصى آدم أن لا يأكل من ثمر شجرة معرفة الخير والشر «لأنّك يوم تأكُلُ منها موتاً تموتُ» (تك ٢:١٧). أغوى الشيطان، الحيّةُ، حواءَ فأكلت هي وآدم من ثمر هذه الشجرة وكانت النتيجة أن طُردا من الفردوس ولُعنت الأرض وصار الإنسان بالتعب يأكل منها و«بعَرَقِ وجهِكَ تأكُلُ خُبزاً حتى تعودَ إلى الأرضِ التي أُخِذْتَ منها، لأنّك ترابٌ وإلى ترابٍ تعودُ» (تك ٣: ١٩). إذاً، الموت هو نتيجة مباشرة لسقوط الإنسان وهو علامة تسلّط الشرير على الكون. في المقابل، ماذا حصل على الصليب؟ لننتبه منذ الآن لما سنسمعه في القراءات الإنجيلية عشية الخميس العظيم المقدس، في خدمة أناجيل الآلام. نسمع المقطع الإنجيلي بحسب الرسول متى (٢٧: ٤٥-٥٣) حيث الرب يسوع معلّقٌ على الصليب ويصرخ «إلهي إلهي لماذا تركتني». يُسرع أحد الجنود ويضع خلاً على اسفنجة ليسقيه. بعدها صرخ يسوع بصوت عظيم «**وأسلم الروح**». وإذا بحجاب الهيكل قد انشق إلى إثنين من فوق إلى أسفل والأرض تزلزلت والصخور تشققت، والقبور تفتحت **وقام** كثير من **أجساد** القديسين الراقدين وخرجوا من القبور بعد قيامته ودخلوا المدينة المقدسة وظهروا لكثيرين». هذا الكلام مهم

العدد ٢٠٠٩/١٢
الأحد ٢٢ آذار
الأحد الثالث من الصوم
(أحد الصليب الكريم المحيي)
تذكار القديس الشهيد في الكهنة باسيليوس قس كنيسة أنقرة
اللحن السابع
إنجيل السَحَر السابع

كـمـا دَعـا هـرون* كـذلكَ الـمسيـحُ لـم يُـمـجّدْ نـفسَـهُ لـيصيـرَ رئـيسَ كـهـنـةٍ بَـلِ الذي قـالَ لـهُ أنتَ ابـني وأنـا اليومَ ولدتُكَ. كما يقولُ في مـوضـعٍ آخـرَ أنـتَ كـاهـنٌ إلـى الأبـدِ عـلـى رتـبـةِ مَلكيصادَق.

الإنجيل

(مرقس ٨: ٣٤–٣٨؛ ٩: ١)

قـال الـربُّ مـن أراد أن يـتـبَعَـنـي فـليكفُرْ بـنفسِهِ ويحمِلْ صليبَهُ ويتبعْني لأنَّ مَـن أراد أن يـخـلِّـصَ نـفسَـهُ يُـهلكُـهـا ومَن أهلك نـفسَـهُ من أجلي ومن أجل الإنـجيل يخلّصُـهـا* فـإنَّـهُ ماذا ينتفعُ الانسانُ لو ربحَ العالَمَ كلَّهُ وخَسِرَ نفسَهُ* أم مـاذا يُـعطـي الانسانُ فِداءً عن نفسهِ* لانَّ مَن يستحي بي وبكلامي في هذا الجيلِ الفاسقِ الخاطئِ يستحي بهِ ابـنُ الـبشـر مـتـى أتـى فـي مجـدِ أبـيـهِ مـع الـملائـكـةِ القديسين* وقال لهم الحقَّ أقـول لـكـم إنَّ قـومـًا مـن القـائمين هـهنا لا يذوقون الـموت حتَّى يَروْا ملكوتَ اللّهِ قد أتى بقوَّة.

جداً ودقيق. في نفس اللحظة التي أسلم فيها يسوع الروح «انشق حجاب الـهـيـكـل» و«قـام كثير من أجساد القديسين الـراقدين». لحظة موت الرب لم يعد من حاجز بين الأرض والسمـاء إذ فُـتحت الطريق مجدداً أمامنا لدخول الفردوس والملكوت. هـذه الـلـحـظـة هـي بداية القـيـامـة فـعـلـيـاً، والدليل على ذلك قـيـامـة الـراقـديـن بـالجسد الـذين ظـهـروا لكثيرين في المدينة المقدسة. لقد كان من اللائق أن لا يظهر هؤلاء المائتين القائمين قبل قيامة الرب وظهوره، لأنه لا بد أن يكونِ يسوع هو البكر في كل شيء. إذاً، لحظة مـوت يسوع عـلـى الصـلـيب كـانـت انـطـلاقـة شـرارة حياتـنـا نحن وخلاصنـا، لأنـه في هـذه الـلـحـظـة «ابتُلع الموت إلى غلبة» (١ كور ١٥: ٥٤) والـدلـيـل عـلـى ذلك قـيـامـة الـكـثيريـن بـالجسد. إقـامـة الـرب يسوع الموتى هو علامة تحريرهم من سلطان العدو، لذا يقول الرسول بولس «آخر عدو يُبطل الموت» (١ كور ١٥:٢٦)، ونحن نقول «ووطئ الموت بالموت».

من هذا المنطلق اللاهوتي الـعـمـيـق لا تـفـصـل الـكـنـيـسـة الأرثـوذكسيـة بين مـوت المسيـح وقيامته: فالصليب هو الذي جلب الحياة الجديدة، ولم يكن الحصول عـلـى الحيـاة الجديدة ممكناً بدون مـوت. نـذكـر هـنـا ان الـكـنيسة في القرون الثلاثة الأولى للمسيحية كـانت تـعـيِّد في الـفـصـح للصليب والـقـيـامـة دون الـفـصـل بـيـنـهـمـا وكـأنـهـمـا حدث واحد. هذا التلازم بين الصـلـيب والـقـيـامـة تـعـكسـه تراتيل هذا الأحد الثالث مِن الصوم، أحـد الصـلـيب، فـلا تـركـز التراتيل عـلـىآلام المسيـح، بل على الحياة الجديدة والتجدُّد الذي منحه موت المسيح لنا ولكل الخليقة، كما ان كـثير مـن الـتراتـيـل تمجِّـد الـرب وقـيـامـتـه من بين الأمـوات: «اليوم يـوم مـوسـم إذ بـقـيـامـة المسيـح قد اضـمـحـل الموت ولاح فـجـر الحيـاة وآدم نـهـض مـرتـكـضـاً بـفـرح، لـذلك نـهـلِّل مسبّحين نشائد الظفر» (من صلاة السَحَر).

بين البشارة الأولى والبشارة الثانية

بُعَيد منتصف القرن الثامن قبل الميلاد، ظهر النبي إشعياء في أرض إسـرائـيل وشعب الله آنذاك يـعيش واحداً مـن أردأ أزمـنـتـه. الانـحـراف الـديـنـي إلى عـبـادة الأوثـان يـزداد، الـبـغض بين الأخوة والانـقسـامـات والانحلال الخلقي مستشريان، خطر السقوط تحت الأمم الغريبة يصبح داهـمـاً، إلى أزمـة رجـاء بين الـقـلـة الـبـاقـيـة من الأمـنـاء. شعب الله إذاً مضـطـرب، بـعـضـه سـاقـط وبـعـضـه الباقي يـائس مستسلم، مرعوب من يوم غضبٍ للرب يراه آتياً. رسالة الله الأولى عبر إشعياء كانت قاسية بلا شك (٦: ٩–١٢)، ولكنها مذيّلة بـالـرجـاء ليفـهـم إسرائيل أن إلـهـه يـؤدّب ولا يـنـتـقـم، ينقـي ولا يُـهلك، «ولكن كالبُطْمَةِ والبَلُّوطةِ التي وإن قُطِعَتْ فلَها ساقٌ يكونُ ساقُهُ زرْعاً مُقدَّساً» يقول السيّد الرب (٦: ١٣). يعود الرب فيرسل نبيّه إلى آحاز مـلك يـهـوذا، والأعـداء عـلـى أبـواب أورشليم، ليقـول لـه «احترز واهـدأ، لا تخف ولا يضعف قلبك من أجل ذَنْبَيْ هـاتين الشعلتين المدخنتين بـحـمـو غضب رصين وآرام وابـن رمـلـيـا». بـهـذه الآيـة يـتـشـدَّد قـلب

تأمل

لا نخجلنّ من صليب المخلّص، بل لنفتخر به. لأن عقيدة الصليب «عثار لليهود وحماقة للوثنيين» (١ كور ١: ١٨، ٢٣)؛ وأما لنا فهي سبيل الخلاص (كو ١:٢٠). إنها حماقة للهالكين، وأما عندنا نحن المخلَّصين، فهي قدرة الله (١ كور ١: ١٨، ٢٤). لأن الذي مات لأجلنا لم يكن مجرّد إنسان بل الله، ابن الله المتجسد. إن كان الحمل، في زمن موسى، يبعد المُهلِك (خر ١٢:٢٣)، فكم بالحري حمل الله الذي يرفع خطيئة العالم (يو ١: ٢٩)، ألا يحررنا من خطايانا؟ إن كان دم الحمل غير الناطق يأتي بالخلاص، فكم بالحري دم الإبن الوحيد ألا يخلّصنا؟ (١ بط ١: ١٨–١٩). إن كان أحد لا يؤمن بقدرة المصلوب، فليسأل الشياطين، وإن كان لا يؤمن بالأقوال، فليثق بالأفعال الظاهرة. كثيرون هم الذين صُلبوا في العالم، ولكن الشياطين لم يفزعوا منهم، إنما فزعوا من المسيح الذي صُلب لأجلنا، وكانت رؤية صليبه

المؤمن ويتعزّز رجاؤه بالله الحاضر معه، وإن أحاطت به أو قست عليه الأعداء، خطاياه وهجمات الشرير عليه.

هنا نزلت البشارة بالخلاص الكبير، التي فهمها بعض وما فهمها كثيرون، وهي أن «العذراء تَحبَلُ وتَلِدُ ابناً وتدعو اسمَهُ عِمَّانوئيلَ» (٧: ١٤)، وعِمَّانوئيل معناها أن الله معنا. المَعجز في هذه الآية أن العذراء تلد، وأن ولادة العمانوئيل في البشرية تشترط أن تهيّء له هذه رحماً نقياً، عفيفاً من الشهوات. كأننا بالله يقول لخليقته خلاصي الأكبر آت، هذا وعدي وهذا شرطي: سوف اتخذ منكم جسداً يحمل كل أوجاعكم ليشفيها، فهيّئوا لي ذاك الرحم النقي. مذذاك صارت الخليقة على موعد مع الفداء الكبير الذي سوف يحصل في الزمان، وإن كان في الذهن القدوس منذ ما قبل الزمان.

نأتي هنا إلى زمن تحقيق الموعد. في ناصرة الجليل فتاة صغيرة وُلدت من أبوين عاقرين، خارج قوانين الطبيعة، وتربّت في بيت الله تقوتها الملائكة وتنمو على تأمل الكلمة، والله مشتهاها الوحيد. عذراء نفساً وجسداً، محفوظة في الطهر والتقوى حتى ما بعد سكناها في الهيكل، مرضية لدى الله مستعدة لتصبح «رأس خلاصنا»، وإن بغير علمها.

يوم أتاها الملاك العظيم «اضطربت من كلامِهِ وفكَّرَتْ ما عسى أن تكونَ هذه التحيَّةُ» (لو ١: ٢٩). هذه التي تربّت على السعي الدائم إلى فهم كلام الله والخضوع لمقاصده نسيت ذاتها كلياً. ما كان همّها إلا أن تفهم قول الله. هذه هي النفس النقية التي منها يولد المسيح، منبع البر والفضائل والصلاح. بهذه البساطة وهذا التجرّد، صارت العذراء كلياً في يد الله. هذا بالإضافة إلى اقتران التواضع بالتنبّه، في ردة فعل واحدة، إذ هي اضطربت تواضعاً لأن ملاك الرب يحييها، وبقيت يقظة لكي لا تقع في حيلة من حيَل الشرير. إذذاك بادرها الملاك مطمئناً بقوله «لا تخافي»، لكي لا يستحيل حذرها ريبة فما سوف يقوله لها هو أبلغ رسائل الله إلى الإنسان حساسية. مَن يعلم أنه وجد لدى الله نعمة يسكنه السلام، كم بالحري تلك التي استحقت – وحدها من بين البشر – ملء النعمة؟

قلنا فيما سبق إن العذراء تربّت على الكلمة الإلهية التي صارت فيها زرعاً وحيداً، فهي إذاً تعرف الأسفار وتفقه معاني الكلمات. لأجل هذا أفصح لها الملاك قصد الله بكلمات النبي القديمة نفسه، وبالصياغة نفسها. «وها أنت (العذراء) ستحبلين وتلدين ابناً وتدعين اسمه يسوع (عمّانوئيل)». باستعماله الكلمات القديمة نفسها يقول لها الملاك بلغة الإعلان الإلهي التي تعرفها جيداً، إن ما سوف يتحقق فيها هو ذاك الوعد الإلهي القديم عينه، لأن شرط الله الملازم لوعده أيضاً فيها تحقق. ألم يصفها الملاك بالـ«الممتلئة نعمة» قبلاً؟ ينبغي الانتباه هنا إلى أن هذه النعمة التي امتلأت منها الفتاة مريم لم تأتها بمجرّد اختيار مسبق، إنتقائي، من الله بل لما استأهلته بجهادها، بحفظها لمطلق النقاوة نفساً وجسداً، بخضوعها الكامل لمشيئة الله. وكأننا بالعذراء مريم حققت لله، في الزمان، ملء الزمان الذي انتظره ليبعث فيه ابنه الوحيد متجسداً،

ترهبهم. مات هؤلاء ليكفّروا عن ذنوبهم، أما هو فمات ليكفّر عن خطايا الآخرين (يو٣:١٦–١٧؛ ١١:١٣:١٨: ٥٠–٥٣). «إنه لم يخطئ ولم يعرف المكر فوه» (١ بط ٢: ٢٢). لم يكن بطرس هو الذي نطق بهذه العبارة حتى يمكن إتهامه بالتملّق لمعلّمه، بل أشعيا الذي قالها: «إنه لم يصنع جوراً ولم يوجد في فمه مكر» (اش ٥٣:٩). هو الذي لم يكن حاضراً جسدياً، ولكنه تنبأ في الروح بمجيء المخلّص بالجسد. ولماذا لا آتي هنا إلاّ بشهادة النبي وحده؟ إليك شهادة بيلاطس نفسه الذي حكم عليه، إذ قال: «إني لا أجد ما يجرّم هذا الرجل» (لو ٢٣:٤). وعندما أسلمه، غسل يديه قائلاً: «أنا بريء من دم هذا الصدّيق» (متى ٢٧: ٢٤). وهناك شهادة أخرى عن براءة يسوع، وهي شهادة اللص، أول الداخلين الفردوس، عندما أنتهر زميله قائلاً: «أما نحن فعقابنا عدل لأننا نلقى ما تستوجبه أعمالنا، أما هو فلم يعمل سوءاً» (٢٣: ٤١)، لأننا كنا، أنا وأنت، حاضرين أثناء المحاكمة.

القديس كيرلس الأورشليمي

فادياً، معيداً للخليقة بأسرها إلى آخر الأزمان اتصالها الحميم بالخالق. العذراء مريم لم تكن جزءاً من مشروع الله الخلاصي وحسب، بل ركنًا من أركان تحقيقه. لأجل هذا أعطاها الله أن تكوّن في رحمها الأطهر جسدًا – بشريًا لابنه الوحيد، الذي «هو صورةُ اللهِ غيرِ المنظورِ، بِكْرُ كُلِّ خليقةٍ، فإنَّه فيه خُلِقَ الكُلُّ ما في السمواتِ وما على الأرضِ... الذي هو قبلَ كُلِّ شيءٍ وفيه يقومُ الكُلُّ وهو رأسُ الجسدِ الكنيسةِ» (كو ١: ١٥–١٨). العذراء مريم فهمت وعد الرب وشرطه من نبوءة أشعياء، فصارت تنتظر خلاص إسرائيل بشوق، حفظت إلى المنتهى نقاوتها وعفّتها بإزاء كل ما ليس من الله، وكأنها اعتبرت نفسها مسؤولة، ولو كفرد من الخليقة جمعاء، عن إتمام وعد الله. العذراء مريم ما التمست لنفسها شيئاً، لذا اضطربت عند تحية الملاك. فقد قدمت ذاتها لله كلياً، لذا أجابت الملاك قائلة «هوذا أنا أمَةُ الربِّ، ليكن لي كقولِكَ» (لو ١: ٣٨).

في نص النبوءة التي حملها اشعياء، قرابة الثمانية قرون قبل التجسّد، أعطى الله للعذراء الموعودة أن تسمي المولود الذي سوف يجسّد حضور الله في وسط شعبه. والمعروف أن منح الإسم حق حصري للوالدين. أي أن الله أعطى العذراء مريم أن تكون أم ابنه الوحيد في بشريته، كما أنه هو أباه في لاهوته. هي رعت تكوّنه في رحمها ككل أم، ربّته وسهرت عليه ككل أم، ولكنها ما فرضت ذاتها عليه في شيء بل «كانت تحفظ جميع هذه الأمور في قلبها» لو ٢: ٥١). حتى في أمومتها أعطت كل شيء، ولم تطلب إلاّ ما لله. والدة الإله حفظت نفسها «قبل الولادة وفي الولادة وبعد الولادة عذراء»، على حدّ تعبيرنا العقائدي، وهذا التحديد يشمل أيضًا المعنى الجسدي للعذرية، لا كما يدّعي بعض المتجاوزين والمضلّين. فكما كانت قبل بشارة الملاك لا إرادة فيها إلا لما لله، بقيت لا همّ لها سوى إتمام ما أوكل إليها من أجل تحقيق الخلاص.

في تقليدنا الشريف تظهر والدة الإله بمثابة أمّ لكل مؤمن مولود كابن لله في المعمودية. ولأن «وسائل الأم تقتدر كثيرًا أن تستعطف السيد» (من صلوات الساعة السادسة) فهي تتشفع بنا أمام الرب لكي ننال الخلاص، وهكذا تكون دائمًا سلّمًا سماويًا مصعدًا «الكل بالنعمة من الأرض»، وجسرًا ناقلاً بالحقيقة من الموت إلى الحياة جميع الذين يسبحونك» (من خدمة المديح).

في نفس السياق رأى العديد من المفسرين أنها هي المرأة في السماء المتسربلة بالشمس «والقمر تحت رجليها وعلى رأسها إكليل من اثني عشر كوكبًا» (رؤ ١٢:١).

بشارة والدة الإله

بمناسبة عيد بشارة سيدتنا والدة الإله الكليَّة القداسة يترأس سيادة راعي الأبرشية المتروبوليت الياس خدمة صلاة الغروب عند السادسة من مساء الثلاثاء ٢٤ آذار ٢٠٠٩ وخدمة القداس الإلهي عند التاسعة والنصف من صباح الأربعاء ٢٥ آذار في كنيسة بشارة السيدة في الأشرفية.

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb